- نوفيلا -

بين الجنة والنار

أماني إسكندراني

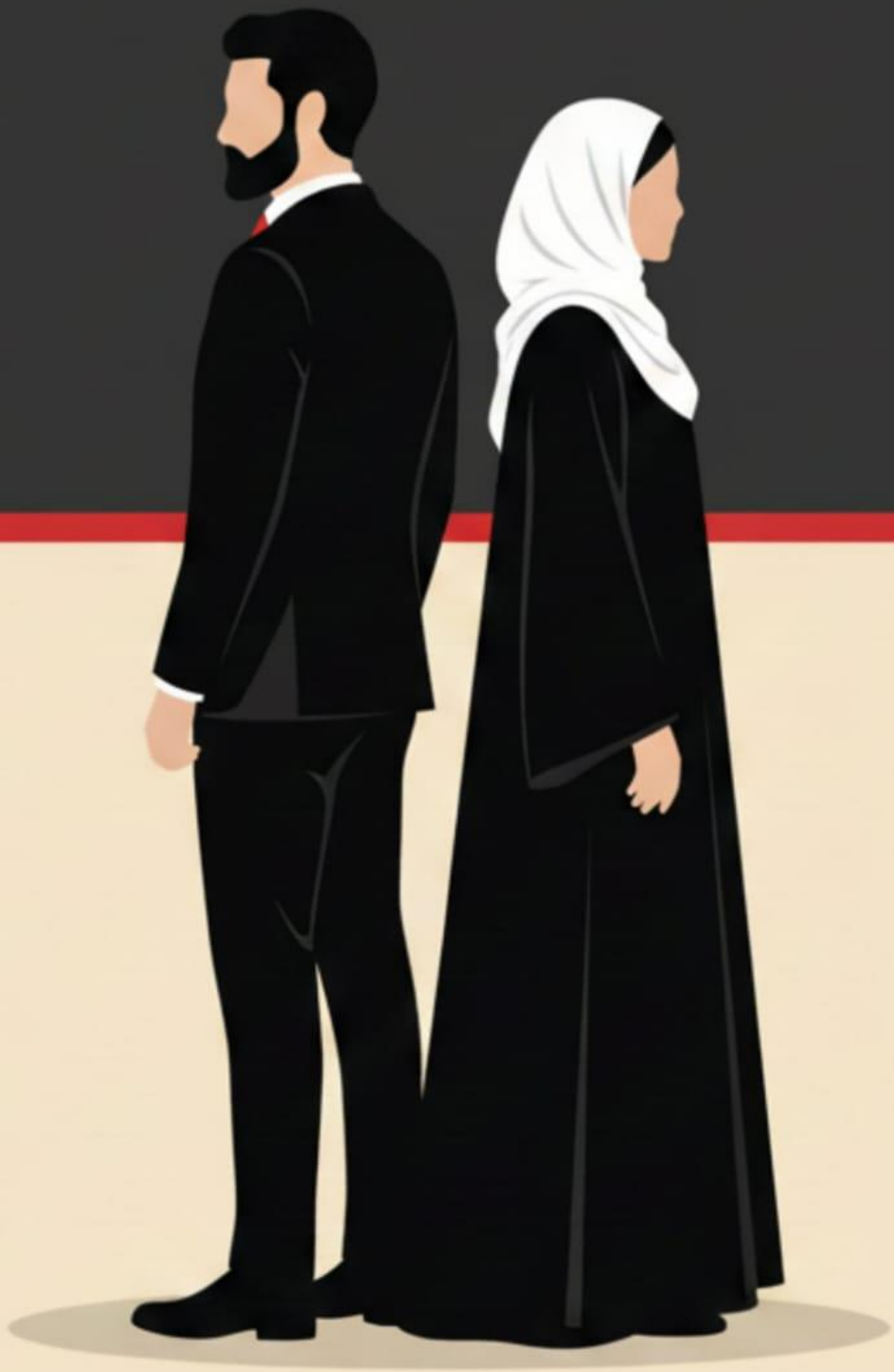

بين الجنة والنار

أماني إسكندراني

إسم العمل:_ بين الجنة و النار

إسم الكاتب/ة:_ أماني اسكندراني

نوع العمل:_ نوفيلا

التصميم الداخلي:_ دينا عبد الفتاح

تصميم الغلاف:_ أميرة أحمد

التنسيق والتعبئة:_ جيجي عمر

التدقيق:_ نور الهدى جاب الله

مراجعة التدقيق:_نور الهدى جاب الله

فريق العمل

دار قطرة حبر

إهداء

إليك يا من كنتِ جنتي على الأرض ... أمي

إليك يا من تهيم في الأرجاء بحثًا عن لمسة الإيمان .. نفسي

إليك يا من ترى أن الألم هو شقاء وعذاب وغضب من الله ...

قارئي

أهديكم روايتي هذه.

ملاحظة من الكاتب:

من منّا ليس بحاجة لدعم نفسي يقيه مّما هو فيه من مشكلات وصراعات نفسية داخلية أو خارجية تتعلق بعلاقته مع الآخرين، فليس الدعم النفسي طريقة لحل مشكلة فقط، بل هو عاملٌ هامٌ، ومساعدٌ للفرد وموجه له، على الطريق الصحيح لحل مشكلاته وصراعاته، من هذه الصراعات ما له علاقة بالدين، أو المعتقد، ومنه ما هو ذات صلة بأمراضه الجسدية، ومنه ما هو صلة بشخصيته، وغيرها الكثير.

وإذا كان علم النفس بمفهومه الواسع الذي يشمل العلاج، الإرشاد النفسي، والصحة النفسية، قد اتخذ الدعم النفسي

والاجتماعي منهجا لعلاج المرضى، والاستماع لهم في الكثير من نظرياته العلاجية والإرشادية، فإنّ الاسلام بشريعته ومنهجه في الكتاب والسنة؛ قد كان السباق لاتخاذ الدعم النفسي والاجتماعي كأحد الأسس الهامة في مساعدة الأفراد.

إنّ الدعم النفسي والاجتماعي جاء كوسيلة لمساعدة الفرد على استخلاص مغزى من تجاربه الغامضة، ومنعه من الانجراف إلى حالة من العزلة والانطواء، تشل حركته وتمنعه من الاستمرار في الحياة.

وبما أنّ لكل فرد رسالة في الحياة، وأنّ مشكلاته الأساسية تكمن في وجود عوائق تمنعه من فهم رسالته والسعي لتحقيقها،

وأنّه لكي يجتاز هذه العوائق ويفهم رسالته يلجأ إلى الآخرين كشكل من أشكال الدعم له، فإنّ حلقات الذكر تأتي في المقام الأول كموجه ومرشد للفرد أولًا، ونصير له في وقت الشدة، خاصةً وأنّها تتضمن شخصا مؤهلًا نفسيً وعلميًا واجتماعيًا يُعدّ قائدا لهذه المجموعة، ويمثّل ما يشبه المعالج النفسي أو الطبيب النفسي الخاص بالفرد بل في أحيانٍ كثيرة يفوق الاثنين معاً.

لين

كان المسجد ملاذا من صخب العالم، صَمتٌ مُطعَّمٌ بعبقِ المسكِ الأصيلِ، فيمتزج برائحةِ الخشبِ العتيقِ والورقِ للكتبِ المصفوفة بأناقةٍ في الخزائنِ.

كانت أشعةُ الشمسِ الأخيرةُ تتكسرُ على الزجاجِ المعشقِ للنوافذِ العليا، فتنهمرُ ذهباً سائلاً على السجادِ الأحمر القرمزيّ، مُشكِّلةً لوحاتٍ من النورِ والظلِّ تتنفسُ برقةٍ.

في هذه اللحظة الهادئة، قبل أن يمتلئ المكان بالمصلين، وفي مصلى النساء، حيثُ كانت القبابُ الصغيرةُ تحتفظُ بهواءٍ باردٍ نقيٍ، كان الهدوءُ يشبهُ غطاءً حريريًا يلفُّ كلَّ شيءٍ.

هنا، لم يكن الصمتُ انعدامَ صوتٍ، بل كان حضورًا روحانيًا ملموسًا، كأنَّ الجدرانَ تهمسُ بأذكارها والفراغُ بين الأعمدةِ يرددُ "الله.. الله.. أكبر" في صمتٍ.

كانت السكينةُ تُنزِلُ عَلَى النفوسِ طمأنينةً كالندى، فتُشعرُ كلُّ من تدخلُ أنَّ أعباءَ الدنيا تذوبُ كالدخانِ في هذا الفضاءِ المقدسِ.

وهناك كانت "لين" تتحرك بهدوء كعادتها، تعدل كتبا على رف صغير، تاركةً وراءها عبقًا خفيفًا من المسك.

كان حجابها الأبيض الطويل، الذي يتلاءم مع جلبابها الأسود القاتم، يلف وجهها الهادئ بإطارٍ نوراني.

عيناها الزيتونيتان، المكحلتان بالفطرة، تلمعان ببصيرة نافذة تدرك آلام البشر قبل كلماتهم، لم تكن واعظة بالمعنى التقليدي، بل كانت قابلةً للقلوب، داعمة، مؤثرة، تسمع أكثر مما تتكلم.

اجتمعتْ حولها مجموعةٌ من النسوةِ في حلقةٍ دائريةٍ، كسبحةٍ مكونةٍ من حباتٍ مختلفةِ الألوانِ والأشكالِ، كانت هناك سيدةٌ كبيرةٌ بيدينِ مرتجفتينِ وعينينِ شاهدتينِ على عمرٍ طويلٍ، وجلسَتْ إلى جانبها فتاةٌ في ربيعِ عمرها بعيونٍ قلقةٍ تبحثُ عن بوصلةٍ، وأخرى في منتصفِ العمرِ بملامحَ منهكةٍ تحملُ همومَ بيتٍ وأطفالٍ، وامرأةٌ أنيقةٌ بملابسَ باهظةٍ لكنْ بعينينِ حزينتينِ تخفيانِ جراحاً لا يعرفها إلا الله، وغيرهن الكثير، كنَّ نسيجًا اجتماعيًا متباينًا، اجتمعْنَ تحت قبةِ الإيمانِ.

كانت جلساتُ لين أشبهَ بجلساتِ علاجٍ نفسيٍّ مُغَلَّفٍ بروحانيةِ الإيمانِ، كلُّ امرأةٍ تخرجُ منها وهي تحملُ في يدها علاجًا لدائها، وفي الأخرى بذرةَ أملٍ جديدةٍ.

جلست لين في مركز الحلقة، وأطلقت على حلقتها اسم "قرة عين". كانت جلستها اليوم هو مفهوم الذكر وفوائده؟

تحدثت لين قائلة بصوت رقيق وجميل:

قال الله تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تنهى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ والله يَعْلَمُ مَا تصنعون} العنكبوت: ٤٥

قال الله تعالي في حديثه القدسي: " أنا عند حسن ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملئٍ خير منهم." متفق عليه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت"[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: " سبق المفردون" قالوا وما المفردون يا رسول الله، قال: " الذاكرين الله كثيراً والذاكرات."[2]

قال صلى الله عليه وسلم: لأن أقول سبحان الله والحمد الله ولا إله إلا الله والله أكبر أحبُّ إلّي ممّا طلعت عليه الشمس.[3]

---

[1] رواه البخاري

[2] رواه مسلم

[3] رواه مسلم

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: «لأن أُسبِّح الله تعالى تسبيحات أحبُّ إلَّي من أن أُنفق عددهنّ دنانير في سبيل الله عزَّ وجل.[4]

وقال عبيد بن عمير: تسبيحة بحمد الله في صحيفة مؤمن خير له من جبال الدنيا تجري معه ذهباً.[5]

" إنّ الذكر هو راحة للنفس يا أخواتي، وتهذيبٌ لها، ودواء لكل مصائبها ومشاكلها."

قال ابن القيم رحمه الله: " إنّ في القلب قسوة لا يذيبها إلّا ذكر الله تعالى".[6]

---

[4] ص6 – كتاب غيث القلوب ذكر الله تعالى - الذكر أغلى بضاعة - المكتبة الشاملة- عبد الله العتيق.

[5] شعب الإيمان/٢/ ١٧٥)

[6] مدارج السالكين (٤٢٣/٢)

وقال ذو النون رحمه الله: ما طابت الدنيا إلا بذكره ، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه، ولا طابت الجنة إلا برؤيته.

" فالذّ ِكر مفهومه شامل، وله معنيان:"

أ). معنىً عام: ويشمل كل أنواع العبادات من صلاة، وصيام، وحج، وقراءة قرآن، وثناء، ودعاء، وتسبيح، وتحميد، وتمجيد، وغير ذلك من أنواع الطاعات؛ لأنّها إنما تقام لذكر الله تعالى، وطاعته، وعبادته.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: كل ما تكلَّم به اللسان، وتصوّره القلب مما يقرِّب إلى الله من تعلّم علم، وتعليمه، وأمر بمعروف، ونهيّ عن منكر، فهو من ذكر الله.[7]

ب). معنىً خاص :وهو ذكر الله –عزَّ وجل– بالألفاظ التي وردت عن الله عز وجل من تلاوة كتابه، أو الألفاظ التي وردت على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وفيها تمجيد، وتنزيه، وتقديس، وتوحيد لله، والمقصود في هذه السُّنَّة هو: المعنى الخاص.[8]

[7] مجموع الفتاوى ١٠/٦٦١.

[8] الفريج،(2016)

وأعظمه: تلاوة كتاب الله تعالى، فالتعبد بتلاوته أسهر عيون السلف، وأقض مضاجعهم ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: 18]

"كذلك ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال ((:أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بخير أَعْمَالِكُمْ وَأَرْضَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ذِكْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ)).[9]"

"ومن فوائد الذكر:

[9] حسن وأخرجه الترمذي (4) جـ9 ص 317 تحفة. ابن ماجة :379

- يزيل الهم والغم عن القلب.
- يجلب الفرح والسرور للقلب.
- يجعل الشخص مهاب وذو هيبة.
- يقوي الجسد والبدن.
- ينزل السكينة.
- يجعل الانسان رقيق القلب.
- يصبغ الفرد بالهدوء.
- يجعل الفرد قليل الكلام وقليل المشاحنة.
- يقرّب الفرد من الله عز وجل.
- يجعل الانسان راضياً بقضاء الله وقدره".

ولأقول لكم من الجانب النفسي: وفقاً لبولبي في نظريته التعلق يرى أنّ وجود ارتباط آمن يرتبط بالرفاهية العامة، والتكيف، ونتائج الصحة العقلية الأفضل، وتعزيز احترام الذات، وعمل علاقات أقوى.

وبالتالي، فإن "الارتباط الصحي" بالله يرتبط أيضاً بوظيفة نفسية أفضل: ..." ومن توكل على الله ، فإنه يكفيه.

حيثُ أكدّ بولبي أنّ المسلم المتبع لشريعته والمؤمن بعقيدته يقوي ارتباط خفي بينه وبين الله سبحانه يعينه عند الشدائد ويعزز من ثقته بنفسه واحترامه لذات ويمكنه من إقامة علاقات متينة بينه وبين الآخرين.

ابتسمت لين ابتسامة رقيقة تملأ المكان دفئاً، ثم تابعت قائلة "يقول الله تعالى في كتابه الكريم: "أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ"، صوتها ناعم لكنه يخترق الأعماق، كالماء الهادئ الذي ينحت الصخر بلطف.

توقفت قليلاً، تسمح للآية بأن تتردد في أذهان الحاضرات.

"ولهذا فإن ذكر الله يساعدنا على الطمأنينة، والتي لا تعني غياب المشاكل، يا حبيباتي"، واصلت حديثها، "بل هي ذلك الميناء الآمن داخل أنفسنا الذي نلجأ إليه حين تهب العواصف. هي ذلك الشعور بأنك، رغم كل شيء، لست وحدك. إنها اليقين بأن هناك نوراً في نهاية كل نفق مظلم."

بدأت إحدى النساء، وهي سيدة في الثلاثينات من عمرها، تلمع عيناها بالدموع، بسرد معاناتها مع القلق الذي يسرق نومها.

استمعت لين بكل حواسها، ثم مدت يدها بلطف فوق يد المرأة، ليس كطبيبة، بل كأخت.

ثم قالت لها: "القلق هو العدو الذي يضخم الظلال". "دعينا نتعلم معاً كيف نضيء مصباح اليقين. ابدئي بشكر الله على نعمة التنفس، نعمة النظر، نعمة هذا اللقاء. املئي صدرك بالحمد، ولن تتركي مساحة للخوف."

كانت كلماتها مغلفة بالإيمان والعلم معاً، تستخرج من كنوز الشريعة ما يصلح حال النفوس. كانت ترى في كل آية وكل

حديث علاجاً نفسياً ربانياً، وكانت مهمتها هي أن تقدم هذا العلاج بلغة العصر، بلغة القلب.

ثم بعد انتهاء الجلسة طلبت من السيدة التي حدثتها عن القلق أن تجلس معها قليلاً...

ثم طلبت منها أن تخبرها عن أحوالها وعن سبب قلقها، كانت تصغي باهتمام بقلبها قبل أذنها، حيث بدأت المرأة بسرد قصتها.

كانت جلساتُ لين أشبهَ بجلساتِ علاجٍ نفسيٍّ مُغَلَّفٍ بروحانيةِ الإيمانِ. كلُّ امرأةٍ تخرجُ منها وهي تحملُ في يدها علاجاً لدائها، وفي الأخرى بذرةَ أملٍ جديدةٍ.

كانت لين سعيدة في عالمها هذا، عالم النور الذي بنته بيديها، ولم تكن تعلم أن هناك، في مكان قريب، في عيادة فاخرة، كان شخص آخر يغرق عالماً آخر في نار أنانية لا تعرف الرحمة ويُديرُ عيادةً هي بمثابةِ مسلخٍ للنفوسِ البريئةِ.

أسامة

على بعد أميال من ذلك المسجد الهادئ، وفي أعلى برج في المدينة، تقع عيادة الدكتور أسامة.

لم يكن المكان يشبه عيادة نفسية تقليدية، بل كان أشبه بتحفة معمارية صممت لتذهل الحواس منذ اللحظة الأولى.

باب مصنوع من خشب نادر، عليه لوحة نحاسية منقوشة باسم "الطبيب النفسي: أسامة العمر".

عند فتح الباب، تنتقل فورا إلى عالم مختلف: أرضية من الرخام الإيطالي الأبيض تتخللها عروق ذهبية، تمتد لمسافة طويلة قبل أن تصل إلى منطقة الاستقبال، حيث هناك مقاعد استلقاء فاخرة من الجلد الأسود، وجدران مطلية بلون "رمادي فاتح" الذي يبدو كلوحة فنية مع إضاءات ليد مخفية.

في الزاوية، نافورة ماء داخليه من الزجاج، يتساقط منها الماء ببطء على أحجار الكريستال، مصحوبة بألحان بيانو هادئة لموسيقى "ياباني أو صيني" التي تنساب كالضباب الخفيف،

محسوبة بدقة لتهدئة الأعصاب، بينما تبقي العقل في حالة استعداد تام للتأثر.

أمّا الممر المؤدي إلى مكتب أسامة كان معتما نوعا ما، تعلوه إضاءة مسرحيه ترسم خطاً نورانيًا على الأرضية، كما لو كانت تقود المرضى إلى مسرح حيث أسامة هو المخرج والبطل الرئيس.

في حين كان المكتب عبارة عن غرفة شاسعة بجدار زجاجي بالكامل يطل على أفق المدينة.

الألوان المهيمنة عليها هي درجات من الأبيض والرمادي والفضي، مع لمسات ذهبية عشوائية تذكرك بثروة صاحبها.

في الوسط، أريكة علاجية فاخرة من الجلد الإيطالي الفاخر..

ليجلس عليها المريض.

في حين توسط مكتب أسامة الغرفة: كرسي من الجلد الأسود، ومكتب عريض أسود اللون عليه نقوش غريبة، كانت الموسيقا مختلفة، عبارة عن أصوات بيانو منفردة متقطعة، تظهر وتختفي كأنفاس غير منتظمة، تترك فراغًا صوتيًا يملؤه قلق المريض، تهيمن على العيادة رائحة هي مزيج محسوب بدقة من رائحة خشب الصندل والورد البلدي مع قليل من الفانيليا، روائح باهظة الثمن تخلق جوًا من الفخامة والغرابة.

يجلس أسامة في كرسيه كالعادة، شعره الأشقر المصفف بإتقان يبدو كتاج شاحب في الإضاءة المحسوبة، عيناه العسليتان لا تعكسان الضوء، بل تمتصانه، تاركتين انطباعًا بالفراغ، وشفتاه الورديتان ترسمان ابتسامة محايدة محسوبة، بذلته الرمادية المظللة تضفي عليه هيبة الطبيب الناجح، بينما يقف طوله الفارع وعرض منكبيه وراء كل حركة من حركاته الواثقة.

هادئ جدًا.. قليل الكلام..زكثير الإنصات.. نظرته حادة ودقيقة وكأنه يرى ما بداخلك.

لم يكن الوصول إلى عيادة الدكتور أسامة مجرد موعد طبي، بل كان نوعاً من التكريم الاجتماعي، فعنوان العيادة يتناقل بين الأثرياء فقط كما تتناقل أسرار النادي الخاص.

هنا، حيث تبدأ طقوس الاستقبال من لحظة ركوب المصعد الخاص، المصنوع من الزجاج الداكن والكروم إلى غرفة الاستقبال حيث تجلس مساعدة شخصية واحدة فقط. امرأة في الأربعينات من عمرها، تشابه في غرابتها الطبيب أسامة، ترتدي تنورة نسائية رمادية اللون، وقميصًا فضيًا، تتكلم بصوت خافت أقرب إلى الهمس.

هنا حيث لا وجود لطوابير الانتظار، ولا أصوات الهاتف، وإنما اقرب ليكون جناح رئاسي في فندق فاخر، لم يكن يأتي إلى هنا إلا من دفع رسوم العضوية السنوية الباهظة، بالإضافة إلى تكلفة الجلسة التي تساوي دخل شهر كامل لطبيب عادي، كان من بين زبائنه:

- رجال أعمال يعانون من نوبات غضب عارمة يدمرون خلالها مكاتبهم.
- سيدات مجتمع يعانين من نزعات سرقة متقطعة من المحلات الفاخرة.

- سياسيون يعانون من اضطرابات كبرى في الشخصية تجعلهم غير قادرين على الشعور بالذنب.

- ورثة ثروات يعانون من الفراغ الوجودي واللامبالاة المطلقة، وشخصيات أخرى...

كانوا يأتون إليه تحديدًا، لأن أسامة فهم شيئاً لم يفهمه غيره: هؤلاء لا يريدون العلاج، هم يريدون تصريحًا بالاستمرار في سلوكهم، يريدون من يبرر لهم أن ما يسميه العالم "مرضًا" هو في الحقيقة "تميز".

كان أسامة لا يشخص الأمراض، بل "يحولها". كان يحول:

- النرجسية إلى "ثقة بالنفس استثنائية".

- الاضطراب المعادي للمجتمع إلى "استقلالية فكرية".

- السادية إلى "حزم إداري".

- جنون العظمة إلى "رؤية مستقبلية".

فبعيادته كان يصنع شفاء وهميًا.. حيث كان مرضاه يخرجون وهم يعتقدون أنهم"أصحاء مميزون"، وليس "مرضى متعافون".

كان أسامة يقدم لهم ما يشبه الرخص الطبية للاستمرار في سلوكهم المدمر، لكن مغلف بمصطلحات نفسية راقية.

وهذا اليوم كان لديه موعد مع أحد الرجال المعروفين في المجتمع بسلطتهم ونفوذهم وقوتهم، رجل شديد الأناقة،

بملبسه المرتب بشده، وحذاؤه شديد اللمعان.. بنقش النسر الصغير على طرفيه، وعينيه الواثقتين شديدتي الزرقة ...

في نهاية اليوم، وبعد أن أنهى جلسته...

أخذ أسامة يشرب نبيذه الفاخر وحده في عيادته المظلمة، كان يبتسم ابتسامة المنتصر، هو يعرف الحقيقة: أنه لا يعالج أحدًا، بل يجعل المرضى يتقبلون أمراضهم ويتفاخرون بها، هو يبيع لهم أوهام القوة، بينما هو في الحقيقة يضعهم في قفص اضطرابهم إلى الأبد.

الأموال الطائلة التي يدفعونها؟ مجرد ثمن وهم الشفاء، والقوة التي يشعرون أنها تزداد؟ مجرد أوهام يبيعها لهم ساحر الظلام.

وفي الخارج، كانت المدينة تضيء، غير عابئة بأن بعض أنوارها كان مصدرها قلوب أظلمت إلى الأبد في عيادة ذلك الطبيب الذي وجد السوق المثالية لمرضه: أثرياء يبحثون عن مبرر ليكونوا أشراراً...مثله.

" سارة ... الطفل الشاهد الذي لم يرى"

كانت سارة طفلة في السادسة من عمرها عندما شهدت جريمة قتل من خلال ثقب الباب. لم ترَ الوجه الكامل للجاني، لكنها رأت عينيه شديدتي الزرقة فقط، وحذاءً أسود لامعًا عليه نقش لنسر صغير على طرفيه، ووشمًا على يده اليسرى

على شكل عنكبوت أسود ضخم يمتد لأصابعه... وحتى الآن لم تخبر سارة أحدًا بما رأته خوفًا على نفسها.

في البداية؛ كانت سارة تدخل في نوبة هلع شديدة عند رؤية أي شخص يرتدي أحذية سوداء لامعة، أو عند رؤية وشم عنكبوت على ذراع أي رجل، كان هذا يحدث في المركز التجاري، في المطعم، في أي مكان.

ثم تطور الموضوع فباتت تقضي ساعات قبل النوم تتفحص نوافذ غرفتها وتقفل الباب عدة مرات.

لم تكن تخاف من اللصوص العاديين، بل كانت تخاف بشكل غير عقلاني من أن يظهر ذلك الرجل "ذو الحذاء الأسود والوشم" فجأة، رغم أنها لم ترَ وجهه أبدًا.

عقل "سارة"، لأنه لم يستطع تكوين صورة كاملة للتهديد، بقي في حالة تأهب دائمة، مما أدى إلى استنزاف طاقتها العقلية وأدى إلى الأرق الشديد.

فالنوم يتطلب الشعور بالأمان، وجسدها وعقلها كانا يرفضان الدخول في حالة من الضعف طالما أن التهديد "غير المكتمل" لا يزال قائما.

العيادة:

دخل الرجل بهدوء مفعم بالثقة، حذاؤه الأسود اللامع يصدر صوتًا خفيفًا على أرضية الرخام، كان في أواخر الأربعينات، أناقة مُفْرطة في تفاصيل بدلته الإيطالية، وعيناه الزرقاوان تشعان برودة غريبة، على يده اليسرى، وشم عنكبوت أسود يتسلق نحو أصابعه.

"دكتور أسامة"، قال بصوته الأجش، "لقد سمعت أنك لا تحكم على أحد".

جلس أسامة يدرس الرجل بنظرة المحلل الذي وجد عينة نادرة.

"أنا طبيب، لست قاضيا، مهمتي مساعدتك على فهم نفسك، لا إدانتها".

"أنا لا أحتاج إلى فهم"، قال الرجل وهو يلمع حذاءه بمنديله، "أحتاج إلى من يقول لي إنني لست مجنونا".

"ما الذي تفعله بالضبط؟" قالها أسامة.

"أحل مشاكل الناس... بشكل نهائي." ابتسم الرجل ابتسامة باردة، "وأتقاضى عليه ثمناً جيداً."

نظر أسامة إلى حذاء الرجل، إلى نقش النسر الصغير على جانبيه، ثم نظر إلى عينيه الزرقاوين الجليديتين، شعر بإثارة غريبة –هذه كانت حالة استثنائية–.

"الجنون مفهوم نسبي"، قال أسامة متكئاً على كرسيه، "ما يسمى جريمة في مكان، يسمى بطولة في مكان آخر، المجتمع يضع التعريفات حسب مصلحته."

"إذاً أنت توافق على ما أفعل..." قالها الرجل.

"أنا لا أوافق ولا أعترض"، قطع أسامة عليه بنظرة ثاقبة، "أنا أساعدك على أن تعيش مع نفسك بسلام، أنت لست مريضاً، أنت... متخصص في حلول نهائية."

المسجد

في نفس اللحظة، في الزاوية الهادئة من مصلى النساء، كانت سارة –امرأة في الثلاثين من عمرها– ترتجف بين يدي لين.

"أرى الحذاء في كل مكان"، همست سارة وعيناها مليئتان بالرعب، "حذاء أسود لامع... عليه طائر... نسر أعتقد."

احتضنت لين يديها المرتعشتين وقالت لها:

"كم كان عمرك يا سارة عندما رأيت ذلك؟"

"ست سنوات"، دمعت عينا سارة، "كنت أنظر من ثقب الباب، رأيته يضرب جارنا... ذلك الصوت المرعب..."

"ماذا كان الصوت؟" سألتها لين.

"كان هناك تمثال... ضربه على رأسه ثم على عنقه... مراراً وتكراراً." رجفت سارة بعنف، "والعيون... عيون زرقاء باردة مثل الجليد."

العيادة

"المشكلة ليست في ما تفعله"، كان أسامة يشرح للرجل، "المشكلة في شعورك بالذنب، لو تخلصت من هذا الشعور، ستكون أكثر كفاءة."

"وكيف أتخلص منه؟" سأل الرجل مستفهما.

"افهم أنك تقدم خدمة للنظام البيئي الاجتماعي، هناك من يحتاج إلى الاختفاء، وأنت تقدم هذه الحاجة، إنها مجرد معاملة اقتصادية."

المسجد

"الذكرى عالقة بداخلك مثل شظية"، قالت لين بصوتها الهادئ، "علينا أن نخرجها بلطف، لنبدأ بالتنفس معاً..."

"لكن لماذا أنا؟ لماذا لا أستطيع النسيان مثل الآخرين؟" سألت سارة

تحدثت لين قائلة لها:

"لأن الله منحك قلبا حساسًا، وهذه نعمة ومسؤولية، مشاعرك القوية هي التي جعلت منك الشخص الرائع الذي أنت عليه اليوم."

العيادة

"لا تقلق شعورك بالذنب سيختفي مع الأدوية التي سأصفها لك." قالها أسامة بثقة.

ليجيبه الرجل... مبتعداً قليلاً عن الكرسي " لا أشعر بأنني بحاجة إلى أدوية.."

أسامة: " لماذا أتيت إذاً... "لو كنت كما كنت سابقاً، لما وجدت نفسك في عيادتي اليوم. شيء ما قد تغير... شيء هز تلك القشرة التي بنيتها حول نفسك طوال هذه السنوات."

تجهم وجه الرجل، ونظر طويلاً بعيني من أمامه يتفحصه بدقة، ثم قال له:

" حسناً.. سأجرب الدواء... لكن إن لم ينفع..." لم يكمل جملته، لكن عينيه الزرقاوين قالتا كل شيء.

انحنى أسامة إلى الأمام وابتسم ابتسامة ماكرة وأجابه:

"أنا هنا بجانبك، ثق بي، كما وثقت بي عندما قطعت كل هذه المسافة لتأتي إليَّ وحدي."

"هذه الأدوية ستحولك إلى نسخة أفضل من نفسك"، كان يقول له، "نسخة أكثر هدوءً، أكثر تركيزاً، وأقل... تردداً."

أومأ الرجل برأسه موافقاً، كان قد سمع الكثير عن هذا الطبيب الغامض، لكن ما اكتشفه بنفسه كان أعمق بكثير مما تناقله الناس.

لم تكن تلك الأدوية مجرد وصفة عابرة، بل كانت خليطًا محسوبًا بدقة من عقاقير نفسية متعددة، مصممة لتحقيق ثلاثية التخدير العاطفي:

- قتل مشاعر الذنب والألم
- خفض الاستجابة الجسدية للتوتر

· تضخيم التركيز في أداء المهام "الصعبة"

في عقل أسامة، كانت هذه المشاعر الإنسانية مجرد عوائق يجب إزالتها، وأدويته كانت المفتاح لتحرير الرجل من "قيود" الإنسانية، وتحويله إلى آلة أكثر كفاءة.

المسجد

وفي المسجد الهادئ، كانت لين تحاول أن تنتشل سارة من جحيم الذكرى التي خلفها ذلك القاتل.

جلست سارة بين يدي لين، عيناها تعكسان رعبًا عمره أربعة وعشرون عامًا، كانت أنفاسها متسارعة وكأنها لا تزال تلك الطفلة ذات الست سنوات التي شهدت الجريمة.

"لا أستطيع النوم... أرى تلك العيون في كل مكان"، همست سارة وهي تشبك يديها المرتعشتين.

أمسكت لين يديها بحنان، عيناها الزيتونيتان تفيضان حكمة ورحمة:

"اسمعيني يا سارة... هذا ابتلاء من الله، ولكن لكل ابتلاء حكمة، إن صبرتِ واحتسبتِ، سيعوضك الله خيراً ويعينك على تجاوزه."

توقفت لين قليلاً، ثم قالت بنبرة أكثر إلحاحًا:

"لكن الصبر وحده لا يكفي، هناك شيء عليكِ أن تفعليه، أنتِ الشاهدة التي لم تُسمعي صوتها بعد، والطفلة التي كانت تعرف أن ما رأته خطأ، عليكِ الآن أن تكوني المرأة التي تتكلم بالحق."

انحنت لين أقرب إلى سارة، صوتها يمتزج بالأمل والتحدي:

"ربما هذا الشخص لا يزال يمارس أفعاله، ربما ابتلاك الله بهذه الذكرى لأنكِ ستكونين سببًا في إنقاذ آخرين، ألم تفكري أن الله اختاركِ بشكلٍ خاص لتكوني صوتاً للعدالة؟"

نظرت سارة إلى لين بعيون دامعة، وكأنها تسمع هذه الفكرة للمرة الأولى.

فتحدثت لين:

"الألم الذي تحملينه ليس عقابا، بل هو شرف... مسؤولية، الله يعدكِ بأجر عظيم، ولكن أيضاًا يمنحكِ فرصة لتكوني بطلة في قصة لم تنتهِ بعد."

كانت كلمات لين كالبلسم على جرح قديم، تلمس أماكن في نفس سارة لم يصل إليها أحد من قبل. لأول مرة منذ سنوات، بدأت ترى كابوسها ليس كلعنة، بل كمهمة إلهية.

بعد أن انتهت .. التفتت إليها وقالت لها بامتنان:

"جلساتك يا أنسة لين هي جنتي الأسبوعية."

ابتسمت لين وشكرتها، ثم وقفت لحظة وحيدة في صالة المسجد الفسيحة، نظرت إلى القبلة، وارتفع في صدرها دعاء صامت بأن تظل يدها ممدودة بالخير، وأن تظل كلماتها سببًا في رسم ابتسامة، أو تخفيف هم، أو إنقاذ قلب.

لم يكن أحد منهما يعلم أن الخيط الخفي الذي يربط بين عالميهما كان حذاءً أسود لامعًا، عليه نقش نسر صغير، وعينين زرقاوين باردتين، ظلتا تطاردان طفلة صغيرة حتى كبرت.

العيادة

في العيادة الفاخرة، كان أسامة يمنح القاتل البراءة النفسية التي يبحث عنها.

قال أسامة وهو يعدل جلسته، "دعنا نعيد تعريف ما تسميه 'جرائم'".

كان يجلس مقابل القاتل، متكئاً بثقة:

"المجتمع يحتاج إلى منظفين مثلك، أنت لا تقتل أناسًا، أنت فقط:

- تحل مشاكل اقتصادية وبشرية.
- تقلل من الاكتظاظ السكاني.

· تخلص العالم من عناصره المعطلة والتي تشكل عبئاً ثقيلاً عليه.

المسجد

تمركزت لين كعادتها بين أخواتها –في الله– يذكرون الله –عز وجل–: يسبحونه، يحمدونه ويستغفرونه.

وحين انتهوا قالت لهم: "أخواتي... قالَ رسولُ الله ﷺ إنَّ للهِ تعالى ملائكةً يجوبون الأرض يتتبَّعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله جلسوا معهم حتى يملؤوا ما بين المجلس والسماء بأجنحتهم، ثم إذا انصرف القوم صعدت الملائكة إلى السماء، فيسألهم الله —وهو أعلم— من أين جئتم؟

فيقولون: من عند عبادٍ لك يسبّحونك ويكبّرونك ويهلّلونك ويسألونك جنتك ويستعيذون بك من نارك ويستغفرونك. فيقول: وهل رأوا جنتي؟ وهل رأوا ناري؟ فيجيبون: لا. فيقول: فكيف لو رأوها! قد غفرتُ لهم، وأعطيتُهم ما سألوا، وأجرتُهم مما استعاذوا، ففيقولون: رب! فيهم عبدٌ خطَّاءٌ إنما مرَّ فجلس معهم. فيقول: وله غفرتُ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم".

ثم تابعت لين حديثها:

"ما حلقات الذكر إلّا فرصة لتقرّب الفرد من ربه عز وجل بالمقام الأول، ثم تقرّبه من الناس، فهي بالأساس قائمة على فكرة استشعار الفرد لحاجات الآخرين ومشاركتهم أفراحهم

وأحزانهم، بحيث تجعل الكل ينصهرون معاً في بوتقة واحدة ألّا وهي الإيمان، فتلغي مفهوم الفروق الفردية في الشكل واللون والعمر والعلم وغيرها، وتقوّي الروابط بين الأفراد، فيشعرون بأنهم محاطون بسند قوي يقف إلى جانبهم في الفرح والحزن.

إنّ حلقات الذكر عبارة عن مجموعة من الأفراد اجتمعوا على عقيدة ومبدأ واحد رغم اختلاف بيئاتهم الثقافية وخلفيتهم الاجتماعية والاقتصادية ومستواهم العلمي والاجتماعي، ورغم اختلاف أعمارهم الزمنية والعقلية، ورغم اختلاف أهدافهم وأفكارهم ورسالاتهم في الحياة.

وتعتبر حلقات الذكر في الدين الاسلامي من أقوى الروابط اجتماعياً ومن أعلى الأحزاب سياسياً، فهي تقوم على الشورى بين الأفراد فيما يخص تحليل شؤون البلاد وتنظيم أمور الناس، وهذا ما كان يتبعه النبي محمد عليه الصلاة والسلام مع أصحابه في تنظيم أمور الدولة الاسلامية وبناؤها، وهذا كان أساس بناء الدولة وانتشار الدين الاسلامي بين البلاد.

فلم يكن النبي عليه الصلاة والسلام ليقرر أمراً هاماً يخص الدولة الاسلامية إلّا واجتمع مع أصحابه، فذكروا الله سبحانه ثم تشاوروا في الأمر."

أسامة

تتالت الجلسات مع الرجل شديد الأناقة...

توقف الرجل للحظة، ثم استأنف حديثه بتردد:

"أحيانًا، يوقظني ذلك الصوت الداخلي".

قاطعه أسامة بحدة، وكأنه يقطع خيطاً مزعجاً:

"ذلك "الصوت" الذي تسميه ضميرًا ليس سوى وهم صنعته المجتمعات لترويض أمثالك من الأقوياء."

ثم أمال رأسه قليلاً، وعيناه العسليتان تشعان بذكاء مظلم:

"الحياة البشرية في حد ذاتها لا تقدس شيئاً، قيمتها الحقيقية في الإنتاجية، ومن لا ينتج... أنت أدرى بمصيره."

همس الرجل وكأنه يبحث عن خيط نجاة:

"إذن، ماذا تريد مني أن أفعل الآن؟"

انحنى أسامة إلى الأمام، وكلماته تسقط كقطرات السم:

"واصل مسيرتك، لكن بتصور جديد،ولا تنظر إليهم كبشر، بل كمشاريع انتهت صلاحيتها... أو كأورام سرطانية تستأصلها من جسد المجتمع."

سأل الرجل وكأنه يبحث عن تأكيد أخير:و"هل...هل سأعود إلى ما كنت عليه؟"

ابتسم أسامة ابتسامة منتصرة:

"بل ستصبح أفضل مما كنت، سوف أحررك من كل المشاعر الإنسانية السخيفة، لتتحول إلى أداة أكثر دقة وكفاءة."

لين

ابتدأت لين جلستها بقراءة "سورة يسين" والصلاة على النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– ،

ثم تابعت حديثها قائلة:

"إن من أهم الأدلة التي ذكرت من القرآن الكريم على وجوب لزوم الجماعة:

قوله تعالى :يَا أَيهُّ َا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّ َّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَ ُموتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُواْ بِ َحبْلِ اللَّه جَ ِميعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ [آل عمران:].102-103

فإن الاعتصام بالقرآن، والإخلاص لله وحده، والتمسك بالإسلام الصحيح الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلها مما ينتج عنه تآلف المسلمين واجتماعهم وترابطهم، وتماسك مجتمعهم.

كما لابدّ من أن يكون أساس الاجتماع هو الحق وكلمة الحق، وهذه الكلمة غالباً ما تطلق على كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ولازمتها (محمد رسول الله) وذلك على فهم السلف الصالح لها

بمراعاة شروطها، ولوازمها، وحقيقتها، ومعناها الصحيح مع معرفة نواقضها للاحتراز منها.

ثم نلاحظ أن ابن كثير –رحمه الله– بعد ذكره للاختلاف والفرقة التي حصلت في هذه الأمة، جعل مناط النجاة والفوز أن يكون المسلم متمسكاً بما كان عليه النبي –صلى الله عليه وسلم–، وصحابته –رضوان الله عليهم–".

"لذلك أوصيكم دائماً بحضور مجالس العلم، والالتزام بها، لما لها من أجر، كما أنها تحقق أعظم مبدأ من مبادئ ديننا، ألا وهو التآخي في الله والتحابب فيه."

أسامة

بعد ثلاثة أشهر من العلاج، جلس الرجل ذو نقش النسر على جانبي الحذاء، في عيادة أسامة وقد تغيرت ملامحه، البرود يلف وجهه كقناع، والعينان الزرقاوان فقدا بريقهما الإنساني، وحل محلهما بريق آلي بارد. لم يعد ذلك الرجل الذي كان يوقظه ضميره ليلاً.

قال أسامة بنبرة العالم الموضوعي:

"أثبتت أبحاثي أن ٨٥٪ ممن يقع عليهم اختيارك، كانوا سيلقون حتفهم خلال عام – إما بمرض عضال أو انتحار، كل ما تفعله هو تسريع للحتمية."

همس الرجل وكأنه يقتنع للمرة الأخيرة:

"ربما... ربما كلامك صحيح".

انحنى أسامة للأمام، وكلماته تنساب كالسحر الأسود:

"هم سيموتون بكل الأحوال، أنت تختصر معاناتهم، تمنحهم رحمة مبكرة، أليس هذا نبلاً في حد ذاته؟"

لم يقل الرجل سوى: "امممم..." في تردد أخير.

فاستغل أسامة اللحظة:

"أريدك أن تعود إلى الميدان من جديد، ما رأيك أن تمنح رجلاً آخر خلاصه؟ أن توقف عذابه؟ أن تحرره من قيود الحياة البائسة؟"

كان يغرس الفكرة في تربة العقل المهيأة، يرويها بكلمات ملتوية، ثم سأل بالسؤال المحوري:

"هل أنت الرجل المناسب لهذه المهمة النبيلة؟"

كانت العبارات المتلاعبة تسقط كقطرات الماء على حجر صوان، لا تلبث أن تحدث تأثيرها التآكلي البطيء، محولة القاتل من مجرد منفذ إلى "محرر" و"منقذ" في السردية الملتوية التي صاغها أسامة.

وهكذا انسابت المعلومات من أسامة إلى الرجل كسلسلة مظلمة متصلة، لم تكن مجرد تفاصيل، بل كانت خريطة دقيقة

تصل بين نقطة البداية والنهاية، كل شارع، كل وقت، كل حركة... كلها مُنحت للرجل في حزمة متكاملة.

لم يعد أسامة بحاجة للإملاء أو التوجيه المباشر، لقد أصبح الرجل الآن امتدادًا لإرادته، أداة ذكية تعرف بالضبط كيف تتحرك، كان أسامة يتابع الرجل بعينيه العسليتين الحادتين، وهو يغادر العيادة، متسائلاً في داخله: "هل سيكون الأداء بمستوى التوقعات؟"

العملية كانت أشبه باختبار نهائي؛ اختبار لفعالية "العلاج" الذي استمر ثلاثة أشهر، هل سينفذ المهمة ببرود عاطفي تام؟ هل ستكون النتيجة مرضية؟

بإعطاء المعلومات كاملة، كان أسامة يختبر مدى سيطرته على هذه الأداة البشرية التي صقلها بعناية، كانت هذه أولى مهام الرجل في عالمه الجديد، عالم لا مكان فيه للشفقة أو التردد.

خرج الرجل من العيادة، تاركاً أسامة في صمت عيادته الفاخر، مبتسماً ابتسامة المنتظر الذي يرى قطع الشطرنج تتحرك وفقاً لتخطيطه.

لين

عادت لين لمنزلها بعد أن أحضرت طفلها الصغير سامي من منزل جارتها سعاد..

كان طفلها شديد الشبه بها بعينيه الزيتونيتين وشفاهه الوردية الرقيقة وشعره الأشقر..

كان المنزل هادئًا، تملأه سكينة المساء، لكنه كان يفتقد ذلك الدفء الذي يضيفه وجود الأب.

جلست مع صغيرها حول مائدة الطعام البسيطة، تناولا العشاء في صمتٍ لا يخلو من دفء الأمومة.

فجأة، رفع الصبي عينيه إلى أمه وسأل بصوته الصغير الحزين:

"ماما، متى سيعود بابا؟ اشتقت إليه."

ابتسمت لين ابتسامة حنونة تخفي خلفها شيئًا من الشوق، ثم مدت يدها لتمسح على شعره برفق:

"يا حبيبي، والدك رجل مهم، يعمل عملاً نبيلاً يساعد فيه الناس، هل تذكر ما قلناه؟ علينا أن نكون سنداً له، لا عبئاً عليه."

نهضت لتجمع الصحون، بينما كان سامي يلعب في أرجاء الغرفة، ثم عاد ليسأل مرة أخرى:

"لكن لماذا يكون دومًا بعيداوعنا؟"

احتضنته لين بقوة، وعيناها تلمعان بإيمان عميق:

"لأن الله منحه ذكاءً وموهبة ليصنع فرقاً في حياة الآخرين، هذه هبة لا يمكن أن نبخل بها على من يحتاجها، أحبه لأنه الرجل الذي اختاره الله ليكون شعلة نور للآخرين."

نظر إليها سامي وكأنه فهم شيئاً ما، ثم ابتسم وهمس:

"أحب أبي لأنه يساعد الناس."

في تلك اللحظة، بينما احتضنت لين طفلها بقوة، شعرت بامتنان عميق لزوجها الذي اختار أن يكون نوراً في حياة الآخرين، حتى لو كان ذلك يعني قليلاً من الظلام في بيتهم الصغير.

أسامة

شعر أسامة بحاجة ملحة للاحتفاء بانتصاره النفسي الأخير، فاتجه إلى ملاذه الوحيد، تلك الشقة العالية حيث تنتظره سمارة. بعد اتصال هاتفي مختصر، ألغت كل مواعيدها دون تردد، فأسامة كان دائمًا الأولوية القصوى في حياتها.

كانت سمارة تؤمن بأنها لن تكون يومًا ملكة قلبه، فقلبه لا يملكه سواها... المرأة الوحيدة التي تحتل مكانة خاصة في قلبه، والتي تعرفها سمارة جيدًا، وكانت سببً مباشرًا في ارتباطهما معً، لكن أسامة في لحظة ضعفه تحت تأثير الخمر، أفضى لها بأسراره،

معترفا لها بحبه لتلك المرأة الجميلة، وأنها نقطة ضعفه الوحيدة في عالمه المليء بالقوة والتحكم.

ورغم ذلك لم تكف عن التساؤل في نفسها عن سبب زياراته المفاجئة دائمًا.

فتحت له الباب مرتدية فستانً حريريًا، قرمزيًا، يبرز أناقتها وأنوثتها، وقد أعدت كل شيء تحسباً لزيارته، من جانب الطاولة، تلمع زجاجة نبيذه المفضل وبجانبها كأسان بلوريان.

"أردت أن أحتفل معكِ الليلة"، قالها أسامة وهو يخلع معطفه الفاخر.

ابتسمت وهي تملأ الكأس، ثم شغلت موسيقى جاز خافتة بدأت تنساب في أرجاء الغرفة، تمايلت بإيقاع راقص وهي تناوله الكأس تلو الآخر، في مشهد من السحر والغواية.

مع ارتفاع مستوى الكحول في دمه، بدأت حواجزه تتهاوى واحدة تلو الأخرى، انجذب نحوها في انسيابية، ليتحول الرقص إلى عناق، والعناق إلى همسات حارة، ثم انتهى بهما المطاف في غرفة النوم حيث اكتمل احتفاله بانتصاره على الطريقة التي يعشقها.

جلال

جلال ذلك الفتى الوسيم بشعره الأسود الكثيف وعينيه الزمرديتين الخضراوين، تعلوهما نظارات طبية تزيده وسامة ورصانة، طويل القامة، أنيق المظهر، لكن جماله الحقيقي كان في أخلاقه الرفيعة وقلبه النقي، كانا يكبران معًا، وكأن العائلة بأكملها تنتظر اليوم الذي يجمع بينهما في محبة وزواج، لكن القدر كان يخبئ لهما مسارًا مختلفًا.

سافر جلال إلى ألمانيا لدراسة علوم البرمجة، ملبياً نداء طموحه العلمي، حاملاً معه في قلبه سرا لم يجرؤ على البوح به: حبه لابنة عمه لين. هناك، بين قاعات الجامعة ومختبرات البحث،

بنى مستقبله بجد وإصرار، حتى حصل على الدكتوراه، عائدًا إلى وطنه ليسهم في تقدمه وتنميته.

لكن العودة لم تكن كما توقع، وجد أن لين قد تزوجت، فامتزجت في قلبه مشاعر متضاربة: فرح لسعادتها، وحزن على حلم قد تبخر، إلا أن حبه لها كان أكبر من أنانيته، فدعا الله أن يمنحها حياة هانئة، و إن كان ذلك مع شخص آخر.

كان لقاؤهما الأول بعد العودة محفوفًا بالاحترام والمشاعر المكبوتة، بالنسبة للين، كان جلال هو آخر ما تبقى لها من عائلة، بعد أن فقدت والديها وأقاربها في حادث تحطم الطائرة

المؤلم أثناء أدائهم العمرة، لقد قبلت بقضاء الله وصبرت، مؤمنة بأن الدنيا دار فناء، وأن اللقاء في الجنة هو اللقاء الأبدي.

دعاها جلال إلى كافتيريا هادئة قريبة من منزلها، استأذنت لين زوجها هاتفيًا، مبديةً له رغبتها في اللقاء بابن عمها، تمنت في سرها لو رافقها زوجها، لكنه –كعادته– كان مشغولاً، أجابها برسالة نصية مختصرة بالموافقة، فقد حدثته لين سابقاً عن ابن عمها جلال، ذلك القريب الوحيد الذي بقي لها في الدنيا. لذلك، لم يرَ أي مشكلة في لقائهما.

أخذت لين طفلها الصغير سامي، والتقت بجلال في الكافتيريا، بينما كانا يتجاذبان أطراف الحديث، كانت عينا جلال تلتقطان

كل تفاصيلها، معيدتين إلى قلبه كل ذكريات الحب التي كان يكنها لها، لكنه الآن رأى السعادة الحقيقية في عينيها، ورأى البراءة في عيني طفلها، فامتلأ قلبه رضاً وسلاماً، لقد اختار أن يكون سعيداً لسعادتها، فهذا هو الحب الحقيقي الذي يؤمن بأن السعادة لا تملك بل تهب.

لين

كانت حبات المطر تتساقط بلطف على نوافذ المسجد الزجاجية، تتلألأ كاللآلئ في ضوء المصابيح الخافت، كل قطرة تهمس بتسبيحها لله، وكأن الطبيعة بأكملها تنضم إلى حلقة الذكر. كان المنظر مهيباً يملأ القلب بالخشوع.

بين يدي هذا الجمال الرباني، وزعت لين على الحاضرات سبحات معطرة بنفحات المسك صنعتها بنفسها، كل سبحة كأنها عقد من النور، ثم بدأن الجلسة بالتسبيح والتحميد، وتلاوة الآيات بصوت خاشع، والصلاة على الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم–.

وبينما كانت أنفاس الذكر تتعالى، بدأت لين حديثها بصوتها الهادئ الذي يلامس شغاف القلوب:

"أخواتي في الله، إن أعظم هبة أن نتحاب في الله، أن تكون قلوبنا متصلة بربها أولاً، ثم ببعضها. ليس مجرد معرفة عابرة، بل حب في الله ولله."

توقفت لين لحظة، تسمح للكلمات أن تترسب في النفوس:

"عندما نحب بعضنا في الله، نصبح كالجسد الواحد، إن اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء. نكون سنداً في السراء، وعوناً في الضراء."

كانت كلماتها تنساب كالمطر خارج النوافذ، تنقع قلوباً ظمأى للحب والرحمة. وعيناها تلمعان بإيمان عميق، وكأنها ترى في كل امرأة جالسة أختاً وجدت أخيراً مَنْ يفهم لغتها.

وتابعت حديثها قائلة:

وقد أولى الإسلام هذا الجانب عناية كبيرة، ويعتبر من الدعائم الرئيسية التي تقوم عليها وحدة المسلمين وائتلافهم واجتماعهم.

لذلك نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان من أول الأعمال العظيمة التي قام بها بعد هجرته إلى المدينة المنورة، هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

وقد كان لهذا التآخي عظيم الأثر في وحدة المجتمع المسلم وفي تماسكه وترابطه. يقول الشيخ محمد الصادق عرجون –رحمه الله–: "وبهذه المؤاخاة الاجتماعية في الاتفاق والمناصرة، والتعاون والتساعد والتعاضد، والحب في الله ولله الذي جعله النبي –صلى الله عليه وسلم–، أساسًا لهذه المؤاخاة بقوله لأصحابه من المهاجرين والأنصار: "تآخوا في الله، أخوين، أخوين" .

والتآخي في الله هو الثمرة العملية للحب في الله الذي اتخذته الوحدة الإيمانية عنوانًا على وجودها في واقع حياة المجتمع المسلم لقوله صلى الله عليه وسلم، في حديث البخاري: "لا يؤمن أحدكم حتّىَ يجب لأخيه ما يحبه لنفسه".[10]

وتصحيح تركيب المجتمع المسلم على أساس الحب في الله ولله جعل من هذا المجتمع يداً واحدة، وكلمة واحدة، وعملًا واحداً، وذمة واحدة، ودماً واحداً، وفكراً واحداً، ونظاماً واحداً في سياسته ووسائل حياته.

وعد النبي –صلى الله عليه وسلم–، الحب في الله من أوثق عرى الإيمان فقال في الحديث الصحيح الذي يرويه عنه ابن

[10] واه البخاري (13)، ومسلم .(45) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

عباس –رضي الله عنهما–" :أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله."

كما عد النبي –صلى الله عليه وسلم– ، الحب في الله من الأسباب التي يجد بها المؤمن حلاوة الإيمان، فعن أبي هريرة –رضي الله عنه –عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، قال : "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وعد منهم :رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه".[11]

وهكذا نلاحظ أن الأخوة في الله كما أن فضلها عظيم فهي من ركائز الإيمان التي ينبغي لكل مسلم أن يعنى بها.

[11] رواه البخاري (660)، ومسلم (1031)

سارة

نفَّذت سارة وَعدها للين، وشَحَذَت شجاعتها التي طالما افتقدتها لسنوات، توجهت إلى قسم الشرطة، حيث جلست أمام الضابط وهي تروي بشجاعة نادرة ما علق في ذاكرتها منذ ذلك اليوم المشؤوم منذ أربعة وعشرين عامًا، وصفت بحرفية ذلك الرجل القاتل ذا العينين الزرقاوين الباردتين، والوشم الفريد على ساعده –عنكبوت أسود يزحف نحو كفه– ونقش النسر الصغير على جانبي حذائه اللامع، أعادت ذكرى جارها المسن "أبو ياسر" الذي سقط مثل طائر مكسور الجناحين تحت وطأة تمثال ثقيل.

لم تكن كلمات سارة مجرد شهادة عابرة، بل كانت المفتاح الذي أعاد فتح قضية قتلٍ قديمة متجمدة في الأرشيف، وبعد دراسة الوثائق والتحقيقات الأولية، تم إصدار أمر قضائي بالقبض على القاتل ذي المواصفات المطابقة.

في عيادة الظلام

في الجانب الآخر من المدينة، وفي الوقت نفسه تقريبًا، كان القاتل "كريم" يقف مرة أخرى في عيادة الدكتور أسامة الفاخرة، ألقى بنظرة باردة إلى الطبيب وهو يقول بنبرة فيها شيء من الفخر الخفي: "لن يعود ذلك الرجل.. د. رامي.. عائقاً أمامك مرة أخرى."

كان أسامة قد أوعز إلى كريم بقتل زميله الطبيب النفسي "د. رامي وهبة"، ليس لأسباب شخصية عميقة، بل لمجرد أن شهرة "د. رامي" بدأت تطغى على شهرته، ومؤلفاته أصبحت تنافس مؤلفاته في السوق، لم يتحمل أسامة أن يرى منافسًا يسرق الأضواء منه، فقرر أن يحسم المنافسة بطريقته الخاصة.

يوسف

وهكذا بدأت خيوط المصير المتشابكة تنسج لوحتها المأساوية، وبدأت الحقائق الخفية تطفو على السطح واحدة تلو الأخرى، لم تكن سارة هي الشاهدة الوحيدة على جرائم الماضي، فالقدر كان يخبئ شاهدا آخر في الظل.

كان "يوسف" ذلك الصبي الحالم ذو الإحدى عشرة ربيعً، الذي اعتاد كل ليلة أن يقف عند نافذة غرفته متأملاً النجوم عبر تلسكوبه الصغير، في تلك الليلة المشؤومة منذ سنوات، لم يكن يوسف يتأمل النجوم، بل كان يراقب الحي الهادئ عبر عدسته، حين وقعت عيناه على مشهد مريب.

شاهد من نافذة منزله رجلاً يقف فوق جثة، وإذا بوشم العنكبوت الأسود على كفه يلمع تحت ضوء القمر بشكل مرعب، لم يفهم يوسف حينها ما كان يحدث بالضبط، لكن الصورة علقت في ذاكرته ككابوس لا يغادر.

عندما أعيد فتح ملف القضية، جاءت شهادة يوسف لتدعم رواية سارة، مقدمين معا وصفًا دقيقا للقاتل، لم تعد القضية تعتمد على شهادة واحدة، بل على روايتين متطابقتين من زاويتين مختلفتين.

فمنزل يوسف الحالي كان يطل مباشرة على العيادة الفاخرة للدكتور أسامة، وحينما رأى الرجل ذو وشم العنكبوت، أعادت له ذكرى قديمة جدً، ظن أنه نسيها، رغم كل ما تبعها من كوابيس ومشكلات وصراعات عانى منها يوسف لهذه اللحظة.

لذا تم إحياء الذكرى، وصورة الجثة الغارقة بالدماء وقدم ذلك الرجل عليها، وهنا قرر يوسف الإبلاغ عنه.

في المنزل

قرر الزوج العودة أخيرًا لحضن زوجته الرقيقة، هو يعلم أن كيانه كله اشتاق لها، اشتاق لنظرة من عينيها، للمسة حنونة من دفء يديها، اشتاق لضمها لصدره وشم رائحتها التي يحفظها في قلبه قبل عقله.

هي نقطة ضعفه، بل ربما هي نقطة النور الوحيدة التي تقبع في ظلمة قلبه، كانت رؤيتها بلسماً له، وسماعها كسموفونية رقيقة تدغدغ قلبه..

أغلق الباب بهدوء .. ثم نادى عليها:

" عزيزتي لين ... لقد أتيت"

كانت لين برغم كل البعد وكل الهجر، تغفر لزوجها وحبيبها، كانت تعشق حبه لمهنته، وتقدس عمله، كانت ترى فيه العطوف الحنون المحب للآخرين.

لذا حين سمعت صوته، ركضت بلهفة لترتمي بحضنه الذي يغنيها عن العالم بأسره.

قالت له:

"اشتقت لك، اشتقت لرائحتك المنعشة، حبيبي وتاج رأسي ومليك قلبي اليوم وكل يوم".

ضمها لصدره بقوة، شعر بشيء يحرقه من الداخل، شعور ينتعش دائمًا بمجرد عودته لهذا المنزل، لذا كانت زياراته تقل وتقل، حتى باتت معدومة..

لكنه اليوم تحديداً افتقدها، أفتقد نظراتها، حديثها، ابتسامتها، رائحتها، كل جزء منها، لذا عاد للمنزل ليرى محبوبته، عشيقته، وجعه وألمه.

لم يرغب بالابتعاد عنها، لم يرغب بالعودة مجدداً لظلمته الموحشة، لم يرغب بالسقوط مجددا في بئر الوحدة والخوف والندم، لكن كان هذا ما يشعر به حين يراها، يشعر ببشاعة أفعاله، ويؤنبه ضميره الذي لم يصح يومًا..

تحدثه نفسه: "أنت تستحقين رجلاً، أفضل مني، أكثر صدقًا، أكثر نقاءً، رجلاً يشبهك في براءتك وطيبتك"

حينما تزوجها، لم ير آنذاك سوى الوجه الجميل، كانت أجمل فتاة رأتها عيناه، وهو يستحق دائمًت الأفضل، لذا سعى لامتلاكها، للحصول عليها، لكنها لم تكن كباقي الفتيات.

لذا قرر الادعاء والتمثيل، لتشاركه فتاة السهرة خاصته، سمارة، غيرت من هندامها وارتدت حجاباً وجلباباً، وتباكت أمام لين وأخبرتها برغبتها في التوبة والانضمام لمجموعتها... رويدا، رويدًا... وفقت سمارة بين أسامة ولين.

لتتزوج لين الفتاة النقية الطاهرة بأبشع رجل على وجه الأرض... أسامة.

أرادت التحرر من دفء ذراعيه لكنها لم تتمكن، فرفعت يديها واحتضنت وجهه برقة، نظرت لعينيه ورأت فيهما حزنًا دفينًا.

أرادت أن تتحدث، لكنه سبقها، حرر نفسه من حبها، والتفت ليضم سامي الذي أقبل عليه وارتمى بحضنه، رفعه عالياً، ودار به، وسامي يضحك بشدة.

توجه للين مخاطبًا لها: "هناك حديث سأجريه أنا وصديقي الصغير، حديث رجلٍ لرجل .. لكننا لن نتأخر ".

سر سامي كثيرًا، وقبّل والده بحب كبير.

انطلقا، وبقيت لين في المنزل،زاغتنموا الفرصة، فتوضأت وذهبت للقاء بارئها، لتدعي لزوجها الحبيب..

وفي ظل عبادتها وانغماسها بالصلاة والدعاء .. لم تنتبه لهاتفها الذي كان يرنّ بشدة .

كان المتصل جلال، أراد القدوم لرؤيتها، لكنه حينما دخل المبنى رأى من بعيد أسامة وهو يقف أمام المصعد، فتراجع وانتظر، وحين رآه يخرج مرة أخرى وبرفقته الصغير سامي .. اتصل بلين ليعلمها بقدومه ورغبته الملحة في محادثتها لأمر ضروري.

لكنها للأسف لم تجبه، فقرر الذهاب لمنزلها، وهو يقف أمام المصعد، وقف بجانبه رجل آخر ضخم الجثة، دخلا معاً، ضغط الرجل الرقم سبعة، لكن جلال وقف مرتبكًاة، يتذكر حديثه مع لين حين أعلمته أي طابقٍ تقطن..

ولم تستطع ذاكرته رغم كل الجهد الذي بذله .. أن تمده بالرقم الصحيح.

التفت الرجل الضخم متذمراً ومنفعلاً، حين تأخر جلال في ضغط الرقم المطلوب... وقال له:

" متى تنوي أن تتحرك، هل سأنتظر طويلاً؟"

فرد عليه جلال: " عذراً، الرقم نفسه".

وأثار انتباه جلال وشم العنكبوت المرسوم بدقة على معصم الرجل وكأنه مجسم حي...

توقف المصعد وتوجه الرجل للمنزل الذي يقصده.. بعد أن التفت ليتأكد من أن جلال لا يراه أو لا يتبعه..

تريث جلال بعد خروجه من المصعد.. وأخرج هاتفه ليتصل مجددًا، وأثناء ذلك التفت قليلاً ليرى الرجل قد أدخل المفتاح في الشقة رقم واحد وعشرون..

دخل الرجل بهدوء ودون قلق، وكأنه يدخل منزله، كانت لين قد أنهت صلاتها وتذكر الله سبحانه ثم تصلي على النبي محمد – صلى الله عليه وسلم–.

سمعت صوت الباب وإن كان الصوت منخفضًا.. فظنت أنّ زوجها وصغيرها قد عادا بسرعة، فنادت بصوتها الرقيق:

"حبيبي .. هل عدتما بهذه السرعة؟"

اشتمت رائحة عطر لا تشبه عطره الذي يعشعش عميقاً في قلبها وعقلها وأنفها..

فتوجهت سريعاً لباب المنزل، في هذه الأثناء وحين سمع صوت الرجل لين، خرج من الغرفة التي ظنّ أنه سيجدها بها، بعد أن أخبره أسامة بتفاصيل المنزل بدقة، وبسلوكيات زوجته المعتادة.

لكنّ لين هذه المرة لم تصلِ كعادتها في غرفتها وغرفة أسامة، بل صلت بغرفة صغيرها، وهي الغرفة الأقرب لباب المنزل.

في نفس اللحظة، حين أرادت لين فتح الباب، وكان الرجل خلفها مباشرة، تذكر جلال رقم الشقة، فأسرع كالمجنون نحو المنزل، بعد أن أعاد عقله شريط دخول الرجل الغامض.

ارتمت لين بحضن جلال، فأبعدها بسرعة، وأمسك بيد الرجل ورمى السلاح الذي كان جاهزًاقللإطلاق..

لم تخن قوة الجسد جلال يومًا، وهو الذي عرف منذ صغره بالبطل، ومع بلوغه سن الرشد، انتسب لنادي الملاكمة، ودرب عضلاته جيدًت للتصدي لأي خصمٍ مهما كان قوياً.

سرعة جلال وقوته كانت كافية لترمي الرجل أرضاً.. الذي أدرك خسارته .. ففر هارباً بسرعة.

اقترب جلال من لين التي كانت تحمد الله في سرها .. ودموعها تتراقص ضمن مقلتيها..

أمسك بكتفيها وشعور الارتياح بسلامتها ملئ وجهه .

قال لها جلال:

" أحمد الله على سلامتك، هل استطعت التعرف عليه؟

حركت لين رأسها نافية.

لم تستطع الكلام، كان إحساسها بأنّها في رعاية الله يفوق أي شعور آخر، يجعلها كعصفور بجناحين يحلق عالياً في سماء مولاه، شاكراً له وحامدًا.

انتظر جلال خارج المنزل، بينما دخلت لين وبدلت ثيابها وخرجا معاً.

جلسا في المقهى الذي يقع أمام المبنى، طلب جلال فنجانين من القهوة وجلسا بصمت على الطاولة القريبة من الشارع العام.

كانت لين تنظر لمدخل المبنى، منتظرة رؤية زوجها وصغيرها، ولم تصغ لجلال حين أكدّ عليها أهمية الذهاب لمخفر الشرطة والإبلاغ عن الرجل المجهول.

لكن لين أصرّت على رؤية أسامة وإخباره بما حدث.

كان الكلام عالقاً في حلق جلال، لم يعرف كيف يخرجه، لم يكن يريد أن يجرحها، لكن، ما رآه سابقاً، وما حدث اليومط أكدا له أن زوجها أسامة ليس رجلاً صالحًا.

فبادر بالحديث قائلاً بعد تردد طويل وتأتاة:

" لـ.... لـ... لين من فضلك استمع لي، هناك كلام مهم يجب أن أطلعكِ عليه".

نظرت لين إلى وجهه، وأومأت برأسها فقط، فتابع جلال حديثه قائلًا:

"البارحة كنت أسير بلا هدى عبر شوارع المدينة، أُحيي ماضيًا... ذكرى، وربما ذكريات، مع أشياء وأماكم، وفي شارع الروضة..."

توقّف جلال قليلًا وابتلع ريقه، ثمّ تابع حديثه قائلًا:

"هناك... أتذكرين المبنى الملوّن، حيث كنت أعيش مع أهلي؟

هزّت لين رأسها، وانتظرت محدثها أن يتابع. نظر إليها جلال بارتباك، ثم تابع:

رأيتُ أسامة يدخل ذلك المبنى، وقد ظننتُ أنه أتى ليرى صديقًا أو مريضًا".

لكن المنزل الذي دخله، والذي كان منزلي سابقًا، قد أصبح ملكًا لرا... لراقصة، وقبل وصول أسامة بلحظات، كنت قد استفسرت من جاري السيد محمود، والذي –للدهشة– ما زال قاطنًا في المنزل المقابل لنا، استقبلني أحسن استقبال، ورحّب بي، وأطلعني على المالكة الجديدة لمنزلي.

تنهد جلال تنهيدةً طويلة، وشعر بالأسى لكل ما جرى، بعد أن تذكّر ومضاتٍ لم يرغب بها على الإطلاق...

كان حديث جلال ملغّمًا وغريبًا بالنسبة للين، ولكنها، مع هذا، شعرت بما ألمّ بجلال من حزن وألم، فأمسكت بيده.

شدّ جلال على يد لين بقوّة، فوجودها إلى جانبه كان أكبر أمانٍ بالنسبة له، في الماضي والآن.

قبل سنوات (جلال).

كنتُ صغيرً جدًا، لم يكن لي ذنب، كنّا نلعب معًا، في حديقة منزلنا، رغبت في ممازحتها، فرميت لها لعبتها المفضلة بعيداً عنها.. لكنّ اللعبة ارتمت أبعد ممّا تصورت، ارتمت في الشارع العام، كان السائق مسرعاً ومخمورًا لم ينتبه لها، لم يستطع التوقف، شاهدت أشلاء أختي عالقة في عجلات السيارة.

لكنّ أمي لم تستطع مسامحتي أبدًا لقد طردتني من حنانها إلى الأبد، وكأنني يتيم الأم وأعيش مع زوجة أبي.

كنتُ كل يومٍ أتلقى عقابًا على ما فعلت، ضربًا مبرحًا، لا يتحمله شخص بالغ، فكيف بفتى صغير لم يتجاوز السادسة فقط..

لم يستطع والدي فعل شيء، لم يتمكن من مساعدتي، هو أيضاً كلما نظر في وجهي، تذكر فعلتي، تذكر جثة أختي المقطعة.

لم يبالي أحد بحزني .. بندمي ... بخوفي ... بالكوابيس التي تطاردني كل يوم.

وبقيت أشهر طوال، وأنا أتحمل اللوم، الضرب، الطرد من المنزل، والبقاء خارجاً أمام باب المنزل حتى تستسلم والدتي لتوسلات والدي وتدخلني.

إلى أن اقترحت عمتي وزوجها أن أعيش لديهما ويعتنان بي، عمتي التي لم يرزقها الله القدرة على الإنجاب كانت أحنّ عليّ من أمي.

كبرت في ظلٍ من الحنان والحب لكن هذا لم يعوضني عن حب وحنان والديّ...

فقد انتحرت والدتي، أمّا والدي فسافر خارج البلد هربًا من ذكريات باتت تطارده كالأشباح، ولم يهتم يومًا بالسؤال عني ولو عبر الهاتف، ولم يخفف عني الألم والشعور بالندم في ذلك الوقت ..سوى الغالية التي تمسك بيدي الآن.

أسامة

كان أسامة يؤرجح الصغير سامي على أرجوحة الحديقة، فكر كثيراً بما أقدم عليه، كان قلقاً بشدة، ولكنه قد اتخذ القرار بعد أن تأكد أنه لن يصبح سيكوباتياً حقيقياً إن بقيت زوجته في حياته.

قبل سنوات

خبأتني في الخزانة، كنت في الرابعة فقط من عمري، لن أنسى نظرة الرعب التي ارتسمت على وجهها، وقفتْ أمام باب الخزانة مضحية بأغلى ما تملك، فداءً لي ..

سمعتُ صراخهم، وصراخ أبي الهستيري، جروه من شعره بقوة، ورموه أمام قدمي والدتي، كنت أرتعش وأنظر عبر ثقب القفل، وجوههم مليئة بالشر، بالعطش ..

كان وجهه مليئاً بالكدمات والدماء ينزف بقوة، توجه لوالدتي بالصراخ:

– قال لها: "اهربي .. هيا ".

لكنها لم تتحرك، لم تتكلم، مزقوا ثيابها أمام والدي، وارتموا عليها كوحوش ضارية لا تعرف الرحمة، كانت تضع يديها على فمها، والدموع تغرق وجنتيها، كنت أراهم يمزقونها، حتى التفتت إلي .. للحظة خيّل إلي أنها تبتسم لي، ثم سكنت، هدأ جسدها.

فابتعدوا عنها يضحكون، سعداء بما فعلوه، ولم يكتفوا، فبعد تهديد والدي لهم: " لن تفلتوا من العقاب ".

أمسكوا برأسه بقوة وضربوه بالجدار مرارًا وتكرارًا، حتى لطخت دماؤه الجدار والأرض وثيابهم، وقفوا متأملين لإنجازهم، ثم تهامسوا، بللت ثيابي، وضعت يدي على فمي كي لا يسمعوا تنفسي، أحضر أحدهم منشاراً كهربائياً، ثمّ قاموا بما لم أتخيله يوماً، حتى شلّت حركتي وأغميّ علي...

بعد أربعة أيام وجدوني في الخزانة مفتوح العينين، لا أتحرك، لا أهمس، ملطخًا بالقاذورات المتيبسة على جسدي.

كانوا قد شمّوا رائحة كريهة، فأحضروا الشرطة، ولم يتمكنوا إلى اليوم من الإمساك بالقتلة.

أودعت في الميتم، فقدت الإحساس بما حولي، فقدت التعاطف مع غيري، وشعرت بالسعادة حين ارتكبت أولى جرائمي، قتلتُ عصفورًا صغيرا وقطعت له رأسه، كان شعورًا بالقوة والرغبة والانتصار.

لكن بين الحين والآخر أشعر بالخوف في داخلي لم يمت، لذا قررت دراسة الطب النفسي .. ورغبتُ أن أصبح سيكوباتياً، وأصبحتُ طبيب نفسي أعالج نفسي من مشاعر الندم والحزن

والألم، مشاعر تافهة سخيفة ساذجة لا مكان لها في عالم البشر.

تناولت أدوية تساعدني في تحقيق حلمي، ساعدت الكثيرين من حولي ليقتلوا البشرية والإنسانية في داخلهم.

وما إن أصبحتُ مشهورً، حتى رأيتها تخرج من المسجد، كان وجهها من أجمل ما رأيت، لذا قررتُ امتلاكها، فكل ما أريده يجب أن يتحقق، أن ينفذ، لكنّها أضعفتني، آلمتني، أبعدتني عن تحقيق حلمي، ولن أسمح لأحد على وجه الأرض أن يحرك مشاعر الإنسانية في داخلي، لذا حان الوقت للتخلص من كلِ شخص يقف عائقاً بوجهي.

الرجل ذو وشم العنكبوت

شعرت بالندم، أردتُ أن أتغير، أن أصبح إنساناً آخر، منذ أن رأيتُ الابتسامة على وجهها الصغير، وإحساس غريب تملكني.

كنت قد أنهيت مهمتي وتلقيت مبلغًا كبيرًا من المال، أردت الاحتفال كعادتي بعد كل مهمة، حين سمعتهم يصرخون ويلقون ما بأيديهم من حجارة وتراب عليها، كانت صغيرة بجسدها، قوية بنظراتها، لم تستطع التصدي لهم، لكنها لم تبكي، لم تستسلم، وكأنها كانت معتادة على تصرفاتهم الحمقاء معها.

وقفت خلفهم ثم رفعت أحدهم من كنزته إلى الأعلى، كان يصرخ ويضرب بقدميه الهواء، ثم رميته وكأنني أرمي كيسًا من

القمامة، انتشر الرعب سريعًا في وجوههم وفروا هاربين ممسكين بقائدهم الذليل المنكسر.

وفجأة ارتمت بحضني، ونظرت لوجهٍ بريئٍ، يبتسم في وجهي، كنت لها الوطن والأمان.

أبعدتها وانطلقت، لكنها لم ترغب بالابتعاد عني، لحقت بي كظلي، لم تتكلم، لم تصرخ، لم تبكي، دخلت حانة واستمتعت بسهرتي حتى الصباح، وما إن خرجت حتى وجدتها تنتظرني.

تبعتني، ركبت سيارتي ولم أحفل بها، لحقت بي مسرعة، حتى تلاشت صورتها من مرآتي،

وبعد أيام وجدتها أمام منزلي، تنظر لي وتبتسم بثقة ودهاء.

ومع الوقت اعتدت وجودها كحيوان أليف متعلق بي، شعور غريب أنا الذي لم يكن لديه أحد، بات هناك من يهتم به، يفرح لوصوله، يصفق بيديه حين يراه.

لكن هذا كان ضعفًا، لذا التجأت لذلك الطبيب، كان رئيسي هو من نصحني حين رفضت إحدى المهمات.

توجهت له، فساعدني، أدويته جعلتني أعود أقوى عن ذي قبل...

وفي تلك الليلة، كانت تثير ضجة، لا بكلامها، لأنها لا تستطيع الكلام، بل بتحركاتها في أرجاء المنزل، لقد وسخت لي منزلي، لن أسامحها على فعلتها، أمسكت بها، وبيدي ضربتها على

وجهها، كانت الضربة كافية لتجعلها هادئة مرتاحة سعيدة، ومنذ ذلك الوقت وهي تجلس على الكنبة أمام التلفاز لا تفارقه، أحممّها كل يوم، وألبسها ملابس جديدة ونظيفة، وأحضر لها أفضل الأطعمة، إنها سعيدة جداً الآن.

كان صديقي يريد أن يأخذها بعيدًا هددته بالسلاح، فأحضر شخصاً يعرفه، وجعل من طفلتي الصغيرة طفلة مبتسمة دائماً... هادئة.. ساكنة.. رائحتها جميلة.

توفيت الصغيرة في تلك الليلة، كانت ضربته كفيلة بكسر عنقها، لكنه لم يرغب بدفنها، جنّ جنونه، فقام زميله وشريكه في القتل بالتعاون مع أحد زملائه بتحنيطها، وجعلها مبتسمة

دائمًا كما رغب كريم، كريم هو: اسم رجلنا "ذو وشم العنكبوت".

فارقت الصغيرة حياة لم تعشها، حياة حزينة مؤلمة، فوالدتها رحاب كانت متأخرة عقليًا، كانت تعاني من متلازمة داون، حين غفلت عنها والدتها، لم تعرف رحاب كيف تعود لمنزلها، تكالب عليها الرجال وتناوبوا على اغتصابها، كانت فقط في الخامسة عشرة، حبلت، وباتت تسير بلا هدف في الشوارع، تلتقط الطعام من القمامة، وتشرب من ماء الأرض، باتت تقلد القطط والكلاب الشاردة، وانتفخ بطنها شهرًا إثر شهر، حتى عثرت عليها والدتها، وحين رأتها على هذه الحال،

رفضت الاهتمام بها، أنكرت أنها ابنتها، ورمتها، وربما هذه كانت رغبتها منذ البداية.

عانت رحاب من آلام الولادة، حتى ولدت الصغيرة، ثم رحلت عن هذا العالم القاسي، أما الصغيرة فكانت جميلة وبريئة وتشبه والدتها كثيرًا، بملامح تميز وجهها وجسدها وعقلها، فهي أيضاً كانت تمتلك متلازمة داون، وهكذا، كبرت الصغيرة في ظل حي لا يعرف الرحمة أو الشفقة، فأطلقوا عليها اسم، بنت الحرام، ولم يحاول أحد مساعدتها، ولم يكتفوا بهذا، بل أرسلوا أطفالهم لإيذائها كل يوم، ولم تجد الصغيرة حضنًا دافئًا يعلمها الكلام.

كريم قبل سنوات

أنا الفتى الذي يعاقب على أدنى ذرة غبار يتم اكتشافها على ثيابه، كنت أتلقى ضربًا بالسوط على رأسي،

وأحبس في غرفة معتمة مليئة بالجرذان، وأقيد من يدي وقدمي إلى شجرة في حديقة منزلنا الخلفية، ليومٍ أو اثنين، حتى يتم الصفح عني.

الآن، وهو يمسح بقطعة قماش بيضاء على طاولته المعدنية النظيفة، تلمع عيناه ببرودة حين يرى نقطة دم صغيرة قفزت على سترته، يداه ترتجفان قليلًا، ليس خوفًا، بل غضبًا ممضوغًا منذ ثلاثين عامًا.

يمشي إلى المرآة، يعدل ربطة عنقه، يرى الوشم على معصمه: عنكبوت أسود، يلمس زجاجة عطر ثمينة، يرشّ منها، الرائحة تغطي رائحة الدم، رائحة الغرفة القديمة، رائحة الجرذان.

يبتسم أخيراً: هو النظيف، هو السيد، هو من يقرر ما هو الغبار الذي يجب إزالته من عالمه.

لكن في عينيه، لو نظرت بعمق، سترى ذلك الولد المقيد إلى الشجرة، ما زال يحصي ذرات الغبار على جسده، وما زال ينتظر أن يتم الصفح عنه.

عانى والد كريم من اضطراب الوسواس القهري مترافقة مع سمات ذهانية واضطراب في الشخصية، وتوفي والداه بالتيفوئيد،

فكان هو الناجي الوحيد، عاش في فقر مدقع، كانت القمامة طعامه، وماء الجدول الملوث شرابه.

وحين كبر بات يعتقد أن الفوضى والغبار هي "رسائل" أو "إشارات" من قوى شريرة، وكان يرى في ذرة الغبار على ملابس ابنه دليلاً على "التآمر" أو "الفساد الأخلاقي"، ويعتقد أن العالم ينظر إليه ويحكم عليه من خلال نظافة بيته وابنه.

كان يردد لنفسه دائماً:

"الغبار ليس غبارًا... إنها بذور الفساد، على كتفه، نعم، رأيتها تزحف، تريد أن تدخل إلى المنزل، إلى عقله، يجب حرقها قبل أن تتكاثر، العقاب القاسي هو اللطف الوحيد الممكن، سيكرهني

الآن، لكنه سيكون نظيفًا، سيكون آمنًا. عندما يكبر، سيفهم، سيشكرني على إنقاذه من هذا العالم القذر."

أسامة

بدأ أسامة يدفع الأرجوحة بلطف، ثم بقوةٍ أكبر، وهو يهتف للصغير:

"انظر للأعلى! انظر إلى السماء!"

كل دفعة كانت أقوى. الحبال الصفراء تشدّ وتلتوي، كان الطفل يضحك في البداية، ثم بدأ الخوف يتسلل إليه.

"أبي، توقّف!"

لم يتوقّف الأب، كان يحسب: الدفعة العاشرة ستكون من الزاوية الصحيحة.

الدفعة التاسعة... الطفل يبكي... الثامنة...

الحبل يلتفّ حول عنقٍ صغير...

وصولاً إلى العاشرة، دفعة قوية، مع لفٍّ خفيف للحبل، صمت، فقط صوت احتكاك الحبل بالعروة المعدنية.

وقف الأب يشاهد الجسد الصغير يتأرجح، بطنه يرفرف بغريزة البقاء، ثم يهدأ.

بعد سنوات

لين

جلسة الذكر: في حضرة الصبر

كان الهواء في مصلى النساء يحمل نفحاتٍ روحانية، تتخلله رائحة البخور الخفيفة الممزوجة بعطر النقاء. جلست النساء في حلقة متراصّة، وكأن قلوبهن تتلامس قبل أيديهن. في الوسط، جلست لين بحجابها الأبيض الذي يشبه غيمةً نورانية، وعيناها الزيتونيتان تلمعان بحكمة الصابرين.

"أخواتي الحبيبات"، بدأت لين بصوتٍ هادئ كخرير الماء، "اليوم نلتقي تحت مظلة كلمة واحدة تحمل في طياتها كنوزًا: الصبر."

ساد صمتٌ وقور، تتنفس فيه كل امرأة همومها.

"كم مرة شعرنا أن بابًا أُغلق في وجوهنا؟" تابعت لين، وهي تلتفت بنظرة حانية إلى كل وجه. "باب زواج، باب رزق، باب صحة، باب حلم... لكن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم يقول:

«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»."

رنّت الكلمات في المكان كأجراس أمل.

سألت إحدى النساء، وكانت عيناها تلمعان بالدموع:

"ولكن كيف يكون الفقد خيرًا؟ كيف يكون الألم طريقًا إلى الخير؟"

ابتسمت لين ابتسامةً تعرف معنى الألم جيدًا:

"يا حبيبتي، الله عز وجل في قضائه حكيم، وفي قدره رحيم. أحيانًا يغلق الله بابًا لأن ما بعده خطر لا نراه، أو لأنه يُعدّ لنا بابًا أفضل لا نتخيله."

تحدثت أخرى من مكانها:

"لكن الانتظار مؤلم..."

"أجل، مؤلم"، أجابت لين بصدق، "لكن الله يقول:

{إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}."

توقفت لين لترى أثر الكلمات في عيون الحاضرات، ثم تابعت:

"الله لا يمحّصنا بالألم عبثًا، إنما ينظف قلوبنا كما ينظف الصائغ الذهب بالنار. المصيبة التي نراها قد تكون الدرع الذي يحمينا من شرٍّ أكبر، أو المعلم الذي يهذّب أرواحنا، أو الطريق الذي يقودنا إلى رحمةٍ لم نكن لنعرفها لولا الألم."

وأضافت بنبرةٍ تفيض يقينًا:

"وعد الله صادق:

{وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

الله لا يضيع أجر الصابرين، بل يعوضهم في الدنيا قبل الآخرة؛ يعوضهم براحة في القلب، وطمأنينة في النفس، وحكمة في النظر، وأحيانًا يعوضهم بخيرٍ مادي لم يكونوا ليحلموا به، وأحيانًا أخرى بزوجٍ صالح... وولدٍ صالح."

تأثرت بكلماتها تلك، وترقرقت الدموع في عينيها.

ثم أردفت لين قائلة:

"فلنتذكر، يا أخواتي، أن القمر لا يكتمل إلا بعد ظلمة، والورد لا يتفتح إلا بعد شتاء، والإنسان لا يصل إلى كماله إلا بعد امتحان. اصبروا، فالصبر مفتاح كل خير."

وهكذا، في ذلك المصلى الهادئ، كانت لين تبني — بكلماتها الإيمانية — حصونًا من الصبر في قلوب النساء، حصونًا جعلتها هي نفسها تصمد أمام كل العواصف التي انتظرتها في رحلتها المتقاطعة مع عالم الظلام الذي بناه زوجها.

خرجت من المسجد، فتلقّت رسالة على هاتفها المحمول. قرأتها وابتسمت، ثم انطلقت مسرعة.

توجهت إلى الحديقة، وهناك وجدته يؤرجح صغيرها سامي، وكان كلاهما يضحكان بسرور.

اقتربت منهما، فتوقّف جلال عن أرجحة الصغير، الذي ركض مسرعًا ليرتمي بين ذراعي والدته.

اقترب منهما جلال بحبٍّ ورقة، وعانقهما معًا.

قبل سنوات

بعد شهادة سارة ويوسف، أُلقي القبض على كريم، الرجل ذو وشم العنكبوت. كان يفرّ هاربًا من مبنى في شارع المالكي حين أمسكت به الشرطة وأحاطت به من كل جانب. نظر إلى وشم العنكبوت على يده، وابتسم ابتسامةً باردة وهو يمدّ يديه للتقييد، وكأنه كان يعلم أن شبكة القدر قد اكتملت.

في الحديقة...

أخرج أسامة مسدسه بعد أن اطمأن على ابنه وزوجته، ووضع فوهته في فمه. فقد اكتشف أنه مهما فعل، لن يستطيع محو

الشعور بالندم الذي يعيش بداخله، والذي تضخّم بفقدانه زوجته، وبرؤيته جثة طفله سامي الذي قتله بيديه.

في تلك اللحظة، انسابت دمعة على خده — أول وآخر دمعة حقيقية في حياته — ثم دوّى صوت الرصاصة عاليًا.

بعد عام

في بيتٍ جديد تملؤه روائح الياسمين والسلام، جلست لين تضع رأسها على كتف جلال. في مهدهما، كان الطفل الصغير "سامي" ينام بسلام. أعاد الله إليها اسم طفلها، وأعطاها طفلًا جديدًا شديد الشبه بها، يحمل في عينيه زمردةً خضراء كعيني أبيه، ووداعة روحها هي.

في الختام

لقد مرت العاصفة، وها هي الشمس تشرق من جديد.

لين التي صبرت على فراق والديها، على ألم الذكريات، على اكتشاف حقيقة زوجها، وعلى فقدان طفلها – وجدت أن الله عوضها بجلال، الذي كان حباً صافياً انتظرها طوال السنوات، عوضها بصغيرها سامي.

جلال الذي حمل في قلبه حباً لم يمت، وجد أن الله كتب له لين في النهاية، بعد أن نضج الحب في قلبه من حب ذاتي إلى حب إلهي، يريد سعادتها قبل سعادته.

سارة التي عاشت سنوات في رعب، أصبحت شاهدة عدل، وساهمت في القبض على قاتل، فشفت جرح طفولتها بشجاعة كبرى.

كريم القاتل الذي باع ضميره، وجد أن العدالة الأرضية أدركته، وأن شهادتي طفل وامرأة كانتا أقوى من كل أسلحته.

أسامة الذي بنى جحيماً من الذهب والرخام، اكتشف في النهاية أن كل أموال الدنيا لا تساوي دمعة حقيقية واحدة، ولا تعوض عن نظرة حب صادقة.

الدرس الأكبر:

في رحلتنا بين جنة الرضا الداخلي ونار الشهوات والأنانية، نكتشف أن الله سبحانه يغلق أبواباً ليفتح لنا أبواباً لا تتخيلها العقول. قد نمر في نار الاختبار، لكن من يصبر يجد أن هذه النار كانت تُطهِّر لا تُحرِّق، تُعلِّم لا تُهلك.

لين التي آمنت بأن "عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ"، عاشت لترى كيف حول الله مأساتها إلى نعمة، وحزنها إلى فرح، وفراقها إلى لقاء، وموتها إلى حياة جديدة.

وهكذا، في النهاية، تنتصر الجنة – جنة القلب المطمئن بالإيمان – على النار – نار النفس الأمارة بالسوء. لأن النور

لا بد أن يشرق بعد الظلام، والفرج لا بد أن يأتي بعد الشدة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

"وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" صدق الله العظيم.

تمت

بين الجنة والنار

في رحلتنا بين جنة الرضا الداخلي ونار
الشهوات والأنانية، نكتشف أن الله سبحانه
يغلق أبواباً ليفتح لنا أبواباً لا تتخيلها العقول.
قد نمر في نار الاختبار، لكن من يصبر يجد أن
هذه النار كانت تُطهّر لا تُحرّق، تُعلّم لا تُهلك.

تصميم/ أميرة نور الدين